

من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة
إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم

أ/ نافل بن زيد الحربي

باحث دكتوراه في جامعة المدينة الإسلامية

بالمدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: nafel11@hotmail.com

يدرس البحث "بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم"، محاولاً الوقوف على أوجه جديدة للإعجاز القرآني، والإبانة عن بون ما بين الأسلوب القرآني وغيره، والكشف عن بيان أسرار خصيصة بلاغية من أبرع الخصائص الأسلوبية للالتفات لم ينبّه إليها أحد فيما يعلم الباحث، وذلك بالاعتماد على المنهج الفني التحليلي، الذي يُسائل السياق المباشر، وينتفع بالسياق الممتد لتلك الخصيصة الأسلوبية. واقتضت طبيعة موضوع البحث أن يقسم إلى ثلاثة مباحث، هي:

الأول: مصطلحات البحث ومفاهيمه البلاغية.

الثاني: من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في الذكر الحكيم.

الثالث: من بلاغة الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة في الذكر الحكيم.

خلص البحث إلى نتائج عدة، أبرزها: أن من أسرار تحول الخطاب من الجماعة إلى الواحد وعكسه في القرآن الكريم إثارة انتباه المتلقي حيث لا يطرد الأسلوب على نمط واحد، وأن كل فرد مخاطب بما ورد في الآية الكريمة سواء بأمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب... وأنه يأتي أحياناً لمناسبة سياق الآية في مقام التوحيد وإنكار الشرك والكفر، وفي أحيان أخرى يكون لتوجه الخطاب إلى شخص مقصود بعينه.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الالتفات، الخطاب، الجماعة، الواحد.

Abstract

"The rhetoric of paying attention from the group's speech to the speech of one and its opposite in the wise Qur'an"

A/Nafil Bin Zaid Al-Harbi

PhD researcher at Medina Islamic University, Saudi Arabia

The research examines "the eloquence of paying attention to the discourse of the congregation to the discourse of the one and its reflection in the Holy Quran." in order to identify new aspects of the Qur'anic miracle, to demonstrate the difference between the Qur'anic style and others, and to reveal the eloquent rhetorical secrets of the most eloquent stylistic characteristics of the attention that no one has alerted to in the knowledge of the researcher, based on the analytical technical method, which questions the immediate context and benefits from the extended context of that characteristic characteristic. The nature of the subject matter required that it be divided into three investigators:

- Research terminology and rhetorical concepts.
- Second: From the eloquence of paying attention to the congregation's discourse to that of the one in the Holy Quran.
- From the eloquence of paying attention to one's speech to that of the congregation in the Holy Quran.

The research concluded with several conclusions, most notably: One of the secrets of the transformation of discourse from one group to one and its reflection in the Holy Quran is to attract the attention of the recipient, who does not expel the style in a single pattern, and that everyone addresses what is stated in the noble verse, whether by order, prohibition, enticement or intimidation... Sometimes it comes to the occasion of the context of the verse in the place of monotheism, denial of polytheism and disbelief, and at other times the speech is directed at a particular intended person.

Keywords: rhetoric, attention, discourse, congregation, one.

الحمد لله الواحد المعبود، عم بحكمته الوجود، وشملت رحمته كل موجود، أحمده سبحانه، وأشكره، وهو بكل لسان محمود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الغفور الودود، وعد من أطاعه بالعزة والخلود، وتوعد من عصاه بالنار ذات الوقود، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، الركع السجود، والتابعين ومن تبعهم من المؤمنين الشهود.

أما بعد، فلا يزال القرآن الكريم عامراً بالإشارات البلاغية الماتعة، التي تزيد المتأمل يقيناً بأنه كلام الله عز وجل، وأنه فوق طاقة البشر، ويهزنا بأسراره، ويمتعا بلطائفه، ولقد لفتني من ذلك خصيصة الالتفات من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد وعكسه، فعزمت على دراسة تلك الفكرة في الذكر الحكيم، واستعنت بالله تعالى على دراستها، وارتأيت أن يكون العنوان: (من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم). إذ تتمثل أهمية الموضوع في بيان أسرار خصيصة بلاغية من أبرع الخصائص الأسلوبية تنويهاً إلى ما تلقه من أسرار ولطائف وإشارات معنوية؛ وذلك قطعاً من أوجه الإعجاز القرآني الواجب الكشف عنها. وأن الكشف عما خفي من أسرار إعجازه مهمة الباحثين في ميدان البلاغة العربية من طلاب العلم.

لعل من أهم الأسباب والدوافع التي دفعتني إلى دراسة هذا الموضوع هو شدة رغبتني في التعرف على تلك اللطائف والأسرار البلاغية الخفية وراء تلك المخالفة الأسلوبية؛ لثقتي بعظم دورها بين الخصائص البلاغية المتكاثرة في بيان إعجاز القرآن الكريم، ولرجائي أن أنال شرف المحاولة في مدارس كتاب الله تعالى، وتعلم لطائفه، والوقوف على ما يمكنني الوقوف عليه من أسراره؛ لقول رسول الله -ﷺ-: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"¹، وإضافة إلى ذلك إنني لم أقع على بحث في هذا الموضوع بذاته من قبل - حسب اطلاعي المتواضع - مع جلاله وخطر شأنه؛ إذ إنه صورة جلية من صور خلاف مقتضى الظاهر التي يجب أن يكون وراؤها لطائف بلاغية، وأسرار قرآنية جليلة، تستوجب البحث الذي يظهر عظمة الكتاب المجيد، ويقرر إعجازه الذي لا يبارى، غير أن هناك دراسات متخصصة أشبعت صور الالتفات في الذكر الحكيم بحثاً وإنعام نظر، أما تلك الخصيصة الأسلوبية "الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه"، فلم ينتبه إليها أحد من قبل فيما أعلم؛ ولذا وجب بحثها لبيان الأسرار البلاغية الكامنة في مواضعها من الذكر الحكيم. ومن أهم تلك الدراسات المتصلة التي لا شك من إفادتها موضوع بحثنا، ما يأتي:

"الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم بين مطابقة الخطاب ولزوم الأفراد. دراسة دلالية"، لنصر سعيد عبد المقصود، وهي دراسة دلالية متعلقة بأصول اللغة، ولم تهض بالجانب البلاغي المأمول في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

(1) أخرجه البخاري في الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -ﷺ- وسننه وأيامه، صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، 1422هـ، رقم (5027).

"أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"، لحسن طبل، وهي دراسة تناولت الالتفات في القرآن الكريم على وجه العموم، ولم تنتبه لموضوعنا. ومكمن الاختلاف بينها ودراستنا هو أن دراستنا تختص بالالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم، وهذا ما يميز بحثنا عنها.

"جماليات الالتفات في القرآن الكريم"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير، للطالبتين: سعاد بقريش، رباب بوجلال، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالجزائر، جامعة محمد بوضياف، بالمسيلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، فرع الدراسات اللغوية، تخصص لسانيات عامة، للعام الجامعي 2019م. وهي دراسة تناولت تنوع صور الالتفات في القرآن من حيث الغيبة، والمخاطب، والمتكلم، ولم تنتبه أو يذكر فيها شيء من موضوع دراستي، وهو الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه، وهذا مكمن الخلاف.

أما منهج البحث فهو المنهج الفني التحليلي، الذي يُسائل السياق المباشر، وينتفع بالسياق الممتد لتلك الخصيصة الأسلوبية، كما يستأنس لما يلتقطه من أسرار ولطائف بنصوص شرعية أخرى قرآنية وحديثية تكون هناك في سياقاتها أفصح عن تلك الدلالات، فيتجلى تناغم نصوص الدين، وتكاملها؛ وبذلك يتقرر إعجاز القرآن الكريم..

وقد اقتضت طبيعة موضوع البحث أن يأتي في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة تتضمنت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول

مصطلحات البحث ومفاهيمه البلاغية:

يختص البحث بدراسة نوعٍ من الالتفات في الذكر الحكيم، وهو: (من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم)، والتي تقف عند هذا الحد، ولا تتجاوز إلى الأنواع الأخرى من الالتفات، وتتضح الفكرة بتوضيح معاني المصطلحات في العنوان، وهي كالآتي:

البلاغة: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفيقه خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه، والمجاز، والكناية على وجهها"⁽¹⁾.

الالتفات: يزخر موروثنا البلاغي والنقدي بالعديد من المصطلحات البلاغية الدالة على ظاهرة التحول الأسلوبي، ومن أهمها "الالتفات"؛ وذلك نظراً لكثرة تردده في ذلك الموروث البلاغي، واستقلاله بمبحث خاص في علم البلاغة، وبخاصة في عصورها المتأخرة. فهو من أجل علوم البلاغة، وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها، وعقودها، وسمى بذلك أخذاً له من التفات الإنسان يميناً وشمالاً، فتارة يقبل بوجهه، وتارة كذا، وتارة كذا، فهكذا حال هذا النوع من علم المعاني، فإنه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات⁽²⁾.

والالتفات في اللغة: جاء في القاموس المحيط "الالتفات من لفت، لفتاً: لواه، وصرفه عن رأيه، ومنه الالتفات"⁽³⁾، وفي لسان العرب "لَفَتَ وَجْهَهُ عَنِ الْقَوْمِ صَرَفَهُ، وَالتَّفَتَ التَّفَاتاً، وَالتَّلَفَّتْ أَكْثَرُ مِنْهُ، وَتَلَفَّتْ إِلَى الشَّيْءِ، وَالتَّفَتَ إِلَيْهِ: صَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْهِ"⁽⁴⁾. "فالمادة اللغوية أو المعجمية للالتفات تدور في عمومها حول محور دلالي واحد هو التحول أو الانحراف عن المؤلف من القيم أو الأوضاع أو أنماط السلوك"⁽⁵⁾.

وفي اصطلاح البلاغيين هو "التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها"⁽⁶⁾، إذ إن "العرب يستكثرون من الالتفات، ويرون الكلام إن انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القلوب عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملاً باستدراار إصغائه"⁽⁷⁾، ويُقسم أساليب الالتفات إلى أقسام عدة منها:

الأول: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ومثاله قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽⁸⁾ إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽¹⁾.

- (1) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص415.
- (2) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423 هـ، 71/2.
- (3) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، راجعه واعتنى به: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، ط. دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص1478-1479.
- (4) لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، دار صادر، لبنان، بيروت، دط، 1414، ص84.
- (5) أساليب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ط. دار الفكر العربي، 1998م، ص11.
- (6) أنوار الربيع في أنواع البيوع، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، حققه: شاكور هادي شكر، مطبعة النجف، ط1، 1968م، ص363.
- (7) المصدر نفسه، ص363.
- (8) سورة الفاتحة آية 2.

الثاني: من الخطاب إلى الغيبة: وهو عكس الأول، ومثاله من القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾⁽²⁾ وأصله: وجرين بكم .

الثالث: الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ومثاله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾⁽³⁾ وأصله: فساقه.

الرابع: الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾⁽⁴⁾ إلى قوله: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّبِعُوهُ﴾⁽⁵⁾، وأصله: واتبعوني.

الخامس: الالتفات من الخطاب إلى التكلم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا﴾⁽⁶⁾ التفت من الخطاب (أنت) إلى التكلم (إننا).

السادس: الالتفات من التكلم إلى الخطاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽⁷⁾ والأصل: (واليه أرجع)، ومنه قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾⁽⁸⁾.

السابع: الإخبار بالفعل المضارع عن الماضي والعكس، ومثاله في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾⁽⁹⁾. فاستعمل الحق سبحانه الأفعال الماضية (أرسل - فسقناه) للإخبار عن الفعل المضارع، والأصل (يرسل ، نسوقه).

الثامن: الالتفات من خطاب المثنى إلى الجماعة ثم إلى المفرد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ مِمصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁰⁾. التفت من المثنى ﴿تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ﴾ إلى الجماعة ﴿وَاجْعَلُوا﴾، ثم التفت إلى المفرد ﴿وبشر﴾.

التاسع: من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم (وهو موضوع هذا البحث). والمقصود بالالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم تغيير أسلوب الخطاب من الجماعة إلى الواحد والرجوع إلى خطاب الجماعة تارة أخرى أو الاطراد على الأسلوب الجديد؛ وما ذلك إلا لغاية وحكمة قرآنية يقصدها الذكر الحكيم، ويسعى البحث إلى كشف النقاب عنها ما أمكن.

الخطاب:

يعدّ تناول تعريف الخطاب وأنواعه أمرًا مطوّلًا؛ لتعدد تعريفاته، فقد ظهر تعريف الخطاب بداية في حقل الدراسات اللغوية، وظل في حالة تطوّر، وتجدد بما ينسجم وأنواعه، وخصوصية المرحلة التي يمر بها،

(1) سورة الفاتحة آية 5

(2) سورة يونس آية 22

(3) سورة فاطر آية 9

(4) سورة الأعراف آية 158

(5) سورة الأعراف آية 158

(6) سورة طه آية 72، 73

(7) سورة يس آية 22

(8) سورة الإسراء آية 87

(9) سورة فاطر آية 9

(10) سورة يونس آية 87

وهو بحسب المفهوم اللساني يمتد إلى النصوص المتعالية كالقرآن الكريم، والشعر الجاهلي⁽¹⁾. ويختلف كثير من الدارسين في تعريفه، فهو حسب رأي دي سوسير، مصطلح مرادف لـ (الكلام)⁽²⁾. أما هاريس فعنده: "الخطاب وحدة لغوية، ينتجها الباث (المتكلم) تتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة"⁽³⁾. ويعرفه بنفيست بأنه: "وحدة لغوية تفوق الجملة، تولد من لغة جماعية"⁽⁴⁾، وبأنه "أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راو ومستمع، وعند الأول فيه نية التأثير في الآخر بطريقة معينة"⁽⁵⁾. ويعرفه بيار شارود بأنه "ما تكون من ملفوظ، ومقام خطابي، وأن الملفوظ يستلزم استعمالاً لغوياً عليه إجماع، أي قد تواضع عليه المستعملون للغة، وأن هذا الاستعمال يؤدي دلالة معينة"⁽⁶⁾. - تلفظ + مقام خطابي = خطاب - استعمال عليه إجماع نوعية - دلالة معنى

الجماعة:

الْعَدَدُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ، وَالشَّجَرُ، وَالنَّبَاتُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ يَجْمَعُهَا غَرَضٌ وَاحِدٌ⁽⁷⁾.

الواحد:

(الأخذ) أي: الواحد، وَهُوَ أَوَّلُ الْعَدَدِ، تَقُولُ: أَحَدٌ، وَاثْنَانِ، وَأَحَدُ عَشَرَ، وَالْمُنْفَرِدُ، وَيَوْمٌ مِنَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ،

(ج) آحَادٌ وَأَحْدَانٌ وَأَحْدُونَ، وَيُقَالُ: فَلَانَ أَحَدَ الْأَحْدِينَ لَا مِثِيلَ لَهُ، وَالْمُونِثُ إِحْدَى⁽⁸⁾.

-
- 1) ينظر: تحليل الخطاب المبني روائي في الجزائر رواية (أوشام بربرية) لجميلة زبير أنموذجا- لامية بوداود، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب و اللغات، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، ص13.
- 2) ينظر: الأسلوبية في النقد العربي الحديث (دراسة في تحليل الخطاب)، فرحان بدري الحربي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003، ص39.
- 3) المرجع نفسه، ص40.
- 4) المرجع نفسه، ص40.
- 5) المرجع نفسه، ص40.
- 6) محاضرات في تحليل الخطاب، فوزية دندوقة، ص103.
- 7) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة، مادة (ج م ع) .
- 8) المرجع نفسه، مادة (باب الهمزة) 8/1 .

المبحث الثاني

من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في الذكر الحكيم

جعل البلاغيون القدامى الانتقال في العدد ما بين الأفراد والتثنية والجمع من صور البلاغة، وإن لم يسموه باسم (الالتفات) صراحة، ويعد ابن وهب من أوائل من جعلوا الانتقال في العدد من باب الالتفات، وسماه (الصرف) يقول "وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب، ومن الواحد إلى الجماعة"⁽¹⁾. في حين سماه المحدثون باسم "التفات العدد"، ومهم حسن طبل في كتابه "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"، وأورد له أنواعاً ثلاثة، هي: بين الأفراد، والجمع، وبين الأفراد والتثنية، وبين التثنية والجمع⁽²⁾.

ومثل للنوع الأول قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽³⁾. وفي هذه الآية الكريمة تحول من الجمع (قلوبهم) إلى المفرد (سمعهم)، ولم يقل الحق سبحانه: (أسماعهم)، كما في (أبصارهم)، "ولعل أول ما يلفت الناظر أن كثيراً من أمثلة التفات العدد هي التي تتعلق بالذات الإلهية، وقد وردت على صورتين من صور الالتفات، هما: الانتقال من المفرد إلى الجمع، والانتقال من الجمع إلى المفرد"⁽⁴⁾. "وحمل الالتفات في تلك السياقات دلالات متنوعة، لعل من أبرزها التعميم والتخصيص والتوحيد"⁽⁵⁾. ويزخر القرآن الكريم بالعديد من مواضع الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد، ولكل موضع سر ونكتة خاصة به، وقد جاء ذلك في سياقات ومقامات مختلفة، منها الآتي:

أ- بلاغة الالتفات في سياق ذكر بني إسرائيل وحالهم مع الله

من مواضع الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في القرآن الكريم ما جاء في سياق ذكر بني إسرائيل، وحالهم مع الله، وتوضيح ذلك فيما يلي:

الموضع الأول: قال الله تعالى يخاطب بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرَبِّعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁽⁶⁾.

المعنى العام في هذه الآية الكريمة إنَّ الله تعالى يخاطب بني إسرائيل فيأمرهم بذكر مننه عليهم، حيث امتن الله عليهم بالعفو بعدما وقعوا في المخالفات والموبقات؛ وذلك يستوجب شكر الله تعالى، وعدم العود إلى تلك المخالفات. ويقول الله تعالى لهم: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ حين تبتنم، "والعفو محو الجريمة من عفا إذا درس"⁽⁷⁾.

(1) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: حنفي محمد، مكتبة الشباب، القاهرة، 1969 م، 1/152.

(2) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ص88

(3) سورة البقرة آية 7

(4) التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم، نزيه محمد إعلوي، أيمن محمد الأحمد، دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد 34، ملحق 2007، ص720

(5) المرجع السابق: ص 722

(6) سورة البقرة آية 51 - 52

(7) تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، حققه: محمد بن صبحي بن حسن حلاق، محمود أحمد الأطرش، دار الرشيد بيروت، ط1، 2000م، 101/1.

يعود خطاب الجماعة (عنكم) إلى (بني إسرائيل) لقوله تعالى في الآية السابقة لهذه الآية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ادْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾⁽¹⁾. و﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾، "من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل"⁽²⁾، "أي بعد الاتخاذ الذي هو متناه في القبح للإيدان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم"⁽³⁾. وتذكرتهم بـ "ارتكابهم الأمر العظيم، وهو اتخاذهم العجل بعد ما من الله عليهم من تفضيلهم على العالمين، ومن إنجاء الله لهم من آل فرعون، حيث كانوا يسومونهم سوء العذاب، فيذبحون الأبناء الذكور، ويتركون النساء، ومن إنجاء الله لهم عند ملاحقة فرعون وجنوده لهم حيث فرق الله لهم البحر، فضرب لهم فيه طريقا يبسا حتى نجوا من قوم فرعون، وأغرق فرعون وجنوده، وقد شاهد بنو إسرائيل ذلك بأعينهم، ومن عفوهم حين عبدوا العجل في غيبة موسى عليه السلام ظلما منهم"⁽⁴⁾.

من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة: قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾، حيث اتصل كاف الخطاب الدال على الواحد في اسم الإشارة (ذلك)، وهو خطاب للواحد كما تدل الكاف، المجردة من ميم الجمع حيث لم يقل (ذلكم)، بل تغير سياق الخطاب من الجماعة إلى الواحد في قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾، إذ يعود اسم الإشارة (ذلك) إلى الحدث المتمثل في عبادتهم العجل، وعظم الذنب كما سبقت الإشارة إليه.

وسر الالتفات "إنما جاء قوله: (ذلك) مقترنا بكاف خطاب الواحد في خطاب الجماعة؛ لأن (ذلك) كونه أكثر أسماء الإشارة استعمالا للإفراد، إذ خطاب المفرد أكثر غلبة فاستعمل لخطاب الجمع تنبيها، على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد، ومثل هذا في كلام العرب كثير؛ لأن التثنية والجمع شيان، خلاف الأصل لا يصار إليها إلا عند تعيين معناها، فإذا لم يقصد تعيين معناها، فالمصير إليهما اختيار محض"⁽⁵⁾. "كما أن في العدول عن مخاطبة الجمع إلى المفرد في اسم الإشارة إيداناً بالعفو السابق، وأمارة من أماراته إذ أن اتخاذهم العجل إلهاً ذنب قبيح، وجريمة نكراء، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه عفا عنهم، ومن كرمه أنه خاطبهم جميعا عند ذكر العفو، ورجاء الشكر، ولكنه اكتفى بالإشارة إلى جرمهم، ولم يخاطبهم بصيغة الجمع حينئذ كرما وإحسانا، وسترا، ولاسيما بعد العفو"⁽⁶⁾.

ومن أسرار تحول الخطاب من الجماعة إلى الواحد وعكسه في القرآن الكريم إثارة انتباه المتلقي، حيث لا يطرد الأسلوب على نمط واحد، وإنما يأتي تارة في قالب الجماعة، ثم يتحول في قالب الواحد؛ ليظل المستمع حاضر الذهن، منتبها لما يلقي على ذهنه، فلا يسمح له أن يشرد بذهنه، أو ينصرف عن مشاهد الآيات الكريمة، وكأنه يعاين الحدث ويشاهده، فسبحان من هذا كلامه.

(1) البقرة: 47

(2) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، اعتنى به: خليل مأمون شيخا، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط3، 2009م، 76 / 1

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، 1 / 101

(4) الكشف، الزمخشري، 135/1 وما بعدها .

(5) التحرير والتنوير، محمد ابن الطاهر عاشور، دار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 501/1

(6) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم بين مطابقة المخاطب ولزوم الأفراد دراسة دلالية، نصر سعيد عبد المقصود، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الزقازيق، العدد 9، ص1455

الموضع الثاني: قال الله عزوجل مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽¹⁾.

يتمثل المعنى العام للآية الكريمة في قول الحق سبحانه مخاطباً بني إسرائيل، ومذكراً إياهم بأخذ الميثاق منهم باتباع موسى، والعمل بالتوراة، وقد كانوا في أول أمرهم. فقد روي أن موسى عليه السلام جاءهم بالتوراة، فأروا ما فيها من التكاليف الشاقة، كبرت عليهم، وأبوا قبولها فأمر الله جبريل عليه السلام فقلع الطور، فظلله فوقهم حتى قبلوا⁽²⁾. ثم أمرهم الله سبحانه "بأخذ ما جاء في التوراة بقوة وعزم، واحفظوا ما في الكتاب، وادرسوه، ولا تغلفوا عنه، لعلكم بذلك تحققوا التقوى"⁽³⁾، لكنهم لم ينفذوا أمر الله لهم، بل تولوا "، وأعرضوا عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه"⁽⁴⁾، يعني بذلك: أنكم تركتم العمل بما أخذنا ميثاقكم وعهودكم على العمل به بجهد واجتهاد، بعد إعطائكم ريكم المواثيق على العمل به، والقيام بما أمركم به في كتابكم، فنبتتموه وراء ظهوركم. وكفى بقوله جل ذكره: ﴿ذلك﴾ عن جميع ما قبله في الآية المتقدمة، أعني قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾⁽⁵⁾، ف (ذلك) "إشارة إلى عبادتهم العجل في مدة مناجاة موسى، وأن الله تاب عليهم بفضلته، ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين الهالكين في الدنيا أو فيها أو في الآخرة"⁽⁶⁾. من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة: أن الالتفات فيها من خطاب الجماعة (توليتهم) إلى خطاب الواحد (ذلك)، ولم يقل سبحانه: (ذلكم) بزيادة ميم الجمع، فالإشارة إلى الميثاق، وأفراد الخطاب، لتركيز السياق على المشار إليه، واستغراقه للفظ كله؛ لكثرة استعماله مفرداً، ولأمن اللبس، والاكتفاء باكتناف خطابهم من بين يديه ومن خلفه"⁽⁷⁾. وقد "حمل بعض العلماء لفظ (ذلك) في القرآن الكريم على أنه خطاب للنبي محمد ﷺ - غير أن خطابات القرآن متعددة ومتنوعة، فمنها ما يخص المؤمنين، ومنها ما يخص الكافرين أو المنافقين أو أهل الكتاب أو غيرهم"⁽⁸⁾. وهنا الخطاب معني به بنو إسرائيل، ويدخل فيه غيرهم من الحاضرين والقادمين من باب التحذير من التولي والإعراض عن الحق بعد إنعام الله عليهم، فنعم الله على الجميع.

الموضع الثالث: يذكر الله تعالى بني إسرائيل بمعجزة إحياء الميت، فيقول: ﴿إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽⁹⁾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، قال المفسرون: إنه "خطاباً للذين حضروا حياة القتل، بمعنى، وقلنا لهم: كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة"⁽¹⁰⁾، والإشارة فيها إلى محذوف للإيجاز، أي فضربه (فحي)،

(1) سورة البقرة آية 63-64

(2) تفسير البيضاوي، 1/107

(3) الكشف، الزمخشري، 1/80

(4) تفسير البيضاوي 1/108، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 1/109

(5) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، حققه: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، دت، 2/163

(6) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 1/542

(7) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، ص1456

(8) المرجع نفسه، ص20

(9) سورة البقرة: آية 72-73

(10) الكشف، الزمخشري، 1/82

حذفت الفاء الفصيحة في (فجي) مع ما عطف بها، وما عطف هو عليه لدلالة (كذلك) على ذلك، فالخطاب في (كذلك) حينئذ "للحاضرين عند حياة القتيل"⁽¹⁾. فأخبر بمن قتله، أي كذلك الإحياء يحي الله الموتى، فالتشبيه في التحقيق، وإن كانت كيفية المشبه أقوى؛ لأنها حياة عن عدم بخلاف هاته، فالمقصد منها التشبيه ببيان إمكان المشبه كقول المتنبي⁽²⁾:

فإن تَفَقَّى الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمُ فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

"وقوله: كذلك يحي الله الموتى من بقية المقول لبني إسرائيل، فيتعين أن يقدر، وقلنا لهم: كذلك يحي الله الموتى؛ لأن الإشارة إلى شيء مشاهد لهم، وليس هو اعتراضاً أريد به مخاطبة الأمة الإسلامية؛ لأنهم لم يشاهدوا ذلك الإحياء حتى يشبه به إحياء الموتى"⁽³⁾. كما قال آخرون بجواز أن يكون ذلك "للحاضرين عند نزول الآية الكريمة، فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول، بل تنتهي الحكاية عند قوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ مع ما قدر بعده، فالجملة معترضة، أي مثل ذلك الإحياء العجيب يحي الله الموتى يوم القيامة"⁽⁴⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول من خطاب الجماعة (اضْرِبُوهُ) إلى خطاب الواحد (كذلك)، ولم يقل سبحانه: كذلككم (بزيادة ميم الجمع)، فالمخاطب بـ (كذلك) اختلف في مقصودة بين بني إسرائيل والأمة الإسلامية، حيث لم يشاهدوا إحياء الله للميت، والراجح عندي أن كذلك خطاب للواحد لا يصح لبني إسرائيل، ولا للمسلمين، وأن المقصود بالخطاب هو النبي ﷺ، وكل فرد من المسلمين.

والسر في الالتفات من خطاب الجماعة للمفرد أن كل فرد مخاطب في هذه الآية. ومقصود بالتشبيه في طريقة إحياء الله الموتى، فكل فرد معنى بتلك المسألة، فكل واحد ميت، وكل واحد مبعوث.

الموضع الرابع: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَحْزُقُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽⁵⁾.

إن "المخاطب في الآية الكريمة كفار بني إسرائيل، وهم فيما ذكر، بنو أخي المقتول"⁽⁶⁾. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إحياء القتيل، أو إلى جميع ما عدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجيها نحو الحق"⁽⁷⁾.

من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الجماعة في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ إلى خطاب الواحد في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، ولم يقل الحق سبحانه من بعد ذلككم بإضافة ميم الجمع. والسر في العدول عن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد يكمن في قول أبي السعود: "وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين، إما بتأويل الفريق، أو لأن المراد مجرد الخطاب لا تعيين المخاطب كما هو المشهور"⁽⁸⁾.

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 1/ 114

(2) ديوان أبي الطيب المتنبي. أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي، تحقيق: عبدالوهاب عزام، د. ط، (لجنة التأليف والترجمة والنشر. دت)، ص 258

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 56/1

(4) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 1/ 114

(5) البقرة: ٧٤

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 2/ 234

(7) تفسير البيضاوي، 1/ 112، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 1/ 115

(8) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 1/ 115

الموضع الخامس: في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ۗ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾.

سبب نزول الآية الكريمة أنه روي عن أبي بكر "أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، قال: "خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الشَّجَرَ وَالْمَاءَ وَالْمَدَائِنَ وَالْعُمُرَانَ وَالْخَرَابَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾.

يتمثل المعنى العام للآية الكريمة في أن الحق سبحانه يخاطب رسوله الكريم ﷺ: "قل أيها الرسول منكرا على المشركين أشد الأنتكار، ومشعرا بأن كفرهم مع هذه الآيات لا يعقل، قل لهم: لماذا تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين"⁽³⁾، "وتجعلون لمن خلق ذلك كذلك أندادا، وهم الأكفاء من الرجال، تطيعونهم في معاصي الله"⁽⁴⁾، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ "أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم"⁽⁵⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب فيها من خطاب الجماعة في قوله: (أنتكم- لتكفرون- وتجعلون) إلى خطاب الواحد في قوله: (ذلك)، ولم يقل: (ذلكم) بإضافة ميم الجمع. ويرى السعدي أن سر العدول عن مخاطبة الجماعة إلى مخاطبة الواحد، يكمن في أن أن (ذلك) "إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان ببعد منزلته في العظمة، وإفراد الكاف؛ لأن المراد ليس تعيين المخاطبين، وهو مبدأ خبره ما بعده، أي ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر رب العالمين"⁽⁶⁾، وأرى أن أفراد كاف الخطاب في اسم الإشارة (ذلك) يتناسب مع مقام التوحيد وإفراد الله بخلق السموات والأرض، في حين إن المشركين واليهود جعلوا لله أندادا وشركاء كثيرين، فتنكر الآيات عليهم ذلك الكفر والإشراك بالله.

ب- بلاغة الالتفات في سياق التشريع.

تمثلت بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في سياقات بيان أحكام التشريع الإسلامي، وذلك كما يأتي:

1) بيان أحكام القصاص

يخاطب الله تعالى المؤمنين بتشريع إلهي يبين لهم حكم القصاص، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽⁷⁾.

(1) سورة فصلت آية 9

(2) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 432 / 21

(3) التفسير الوسيط، 682 / 8

(4) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 434 / 21

(5) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ط1، 1419 هـ، 165 / 7

(6) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 4 / 8

(7) سورة البقرة آية 178

سبب نزول الآية الكريمة أنه "كان بين حيين من أحياء العرب قتال، وكان لأحد الحيين طول على الآخر، فقالوا: نقتل بالعبد منا الحر منكم، وبالمراة الرجل، فنزلت هذه الآية"⁽¹⁾، ويتمثل المعنى العام للآية الكريمة في أن الله تعالى يخاطب عباده المؤمنين، مبينا لهم فرض القصاص وأحكامه، "فالحر لا يقتل بالعبد، والذکر لا يقتل بالأنتى"⁽²⁾، ثم يأتي الترغيب من الله سبحانه في العفو والمصالحة عن الدماء، "فالعفو يكون من "ولي المقتول، والمراد بأخيه هو القاتل، وصف بأنه أخ تذكيراً بإخوة الإسلام، وترقيقاً لنفس ولي المقتول؛ لأنه أعتبر القاتل أخاً له كان من المروءة ألا يرضى بالقود منه؛ لأنه كمن رضي بقتل أخيه"⁽³⁾. ويقصد بالتخفيف "خفف عنكم وكان على من قبلكم أن الدية لم تكن تقبل، فالذي يقبل الدية ذلك منه عفو، وعن ابن عباس "مما كان على بني إسرائيل، يعني من تحريم الدية عليهم، وإنما هي رحمة رحم الله بها هذه الأمة أطعمهم الدية، وأحلها لهم، ولم تحل لأحد قبلهم. فكان أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو، وليس بينهما أرش. وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، فجعل الله لهذه الأمة القود والعفو والدية إن شاءوا أحلها لهم، ولم تكن لأمة قبلهم"⁽⁴⁾. ثم يحذر الحق سبحانه من الاعتداء بعد العفو "بأن يأخذ الرجل دية وليه، ثم يقتل القاتل بعد سقوط الدم"⁽⁵⁾، ويتوعد فاعله بالعذاب الأليم.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول السياق من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في قول الحق سبحانه: ﴿ذلك تخفيف من ربكم﴾، وملتفت السياق من خطاب الجماعة إلى الواحد في قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ بخطاب الواحد، وهي تعود على "الحكم المذكور في العفو والدية"⁽⁶⁾. ولم يقل الحق سبحانه "ذلكم تخفيف"، والسر فيه أن الله سبحانه جعل الخطاب في ذلك للواحد عوضاً عن خطاب الجماعة "ذلكم"؛ لأن ذلك كما قال المفسرون تعود على العفو، وقبول الدية من أولياء الدم، وهو حاصل إذا عفا واحد فقط من أولياء الدم فإنه يسقط القصاص بعفو الواحد، وليس شرطاً عفو جميع أولياء الدم للتخفيف بقبول الدية، "ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب التسامي، فيذكرنا أن عفواً من أولياء الدم يقتضي أن تسود قضية العفو، فلا يقتل القاتل"⁽⁷⁾.

- (1) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تخريج وتدقيق: عصام عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط2، 1992م، ص 49
- (2) الكشف، الزمخشري، 1/ 111
- (3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 2/ 140، 141
- (4) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 2/ 178 – 179
- (5) تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، 3/ 370
- (6) الكشف، الزمخشري، 1/ 111، تفسير البيضاوي، 1/ 179
- (7) خواطر حول القرآن الكريم، محمد متولي الشعراوي، مراجعة: أحمد عمر هاشم، دار أخبار اليوم، دط، دبت، ص 748

2) بيان أحكام النكاح

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾⁽¹⁾.

قالت عائشة - رضي الله عنها- في سبب نزول الآية الكريمة، "إنها نزلت في الرجل يكون له اليتيمة، وهو ولها ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها فلا ينكحها حبا لمالها، ويضرها ويسيء صحبتها، فقال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، يقول: ما أحللت لكم ودع هذه"⁽²⁾. وقال سعيد بن جبير وغيره كانوا يتخرجون في أموال اليتامى، ويترخصون في النساء، ويتزوجون ما شاءوا فربما عدلوا، وربما لم يعدلوا، فلما سُألوا عن اليتامى، فنزلت آية اليتامى ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾. وأنزل الله تعالى أيضا ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾، يقول: "كما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلوا فبهن، فلا تزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن؛ لأن النساء كاليتامى في الضعف والعجز"⁽³⁾.

والمعنى العام للآية الكريمة يتمثل في أنه "لما عظم الله حق اليتامى في أموالهم، وأمر الأولياء بحفظها، وعدم التفريط فيها، إلى أن تؤدي إليهم، وجعل أكلها ذنبا عظيما؛ أتبع ذلك بحقوق اليتيمات في أنفسهن وأموالهن"⁽⁴⁾، "فقد كان الرجل منهم ربما تحته عشر من الأزواج، والثمانى، والست، ولا يقوم بحقهن، ولا يعدل بينهم، فقيل لهم: إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى، فتخرجتم منها، فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء، فقللوا عدد المنكوحات"⁽⁵⁾ من اليتامى "فلا تنكحوهن، ولكن أنكحوا غيرهن من الغرائب اللواتي أحلهن الله لكم من واحدة إلى أربع، وإن خفتم أن تجوروا فانكحوا منهم واحدة، أو ما ملكت أيمانكم"⁽⁶⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب في الآية الكريمة من خطاب الجماعة في قوله تعالى: (خفتم - تقسطوا - تعدلوا - فانكحوا) إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾، ولم يقل: (ذلكم) بإضافة ميم الجمع، ثم تحول مرة أخرى إلى خطاب الجماعة (تعولوا)، وسر العدول عن مخاطبة الجماعة إلى مخاطبة الواحد في (ذلك) أن "مخاطبة المفرد هنا يشير إلى اختلاف حال كل فرد وقدرته الجسمية والمالية، واستعداده لتحمل مسؤوليته، وما يترتب على ذلك من أحكام"⁽⁷⁾. وإن أفراد(ذلك) تناسب قوله تعالى: ﴿واحدة﴾، وقوله: ﴿أدنى ألا تعولوا﴾، بعد ذلك يؤكد هذا المعنى، فزواج الواحدة أقرب إلى ألا يجور الزوج، فلو تزوج أكثر من واحدة لكان احتمال وقوع الجور أكثر، وإن قل عدد الزوجات كان تحقيق العدل بينهن أقرب، والله أعلم.

(1) سورة النساء: آية 3

(2) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص142، 143

(3) المصدر نفسه، ص143

(4) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مطبعة المصحف

الشريف، ط3، 1992م، 747/1

(5) الكشاف، الزمخشري، 217/1

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 531/7

(7) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، نصر سعيد، ص1495

(3) بيان أحكام الأيمان:

يخاطب الله عباده مبينا لهم أحكام الأيمان: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽¹⁾.

نزلت هذه الآية الكريمة مع الآيات السابقة عليها، ومناسبتها أنه اجتمع عشرة من صحابة رسول الله -ﷺ- في دار عثمان بن مظعون الجمحي، "واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا الودك، ولا يقرّبوا النساء، والطيب، ويرفضوا الدنيا، ويسبحوا في الأرض، ويترهبوا، فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ-، فجمعهم ونهاهم عن ذلك، فقالوا: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها، فنزل قول الحق سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ...﴾⁽²⁾.

إن المعنى العام للآية الكريمة يشير إلى أن الحق سبحانه يبين للمؤمنين أحكام الأيمان بقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، أي أن لا يؤاخذكم "بالحلف بغير قصد القسم"⁽³⁾، وهذا اللغو "ساقط لا يتعلق به حكم"⁽⁴⁾. فكأن حلف الصحابة الذين نزلت فيهم الآية هو من اللغو الذي لا يعتد به، ولكن يُؤَاخِذُكُمْ "بما شددتم، وعقدتم اليمين كعقد الحبل والعهد"⁽⁵⁾، "وهذا اليمين المشدد المقصود كفارته إطعام عشرة مساكين من أقص ما يطعمون أهلهم؛ "لأن منهم من يسرف في إطعام أهله، ومنهم من يقتر"⁽⁶⁾، أو كسوتهم، والخيار للمكفر، أو عتق رقبة "فمن عجز عن الثلاثة فعليه أن يكفر بصوم ثلاثة أيام"⁽⁷⁾، ذلك كفارة الأيمان إذا حنث صاحبها، ثم أمر من الله سبحانه بحفظ الإيمان "بأن يضمنوا بها، ولا يبذلونها لكل أمر، أو بأن تبروا بها ما استطعتم، ولم يفث بها خير، أو بأن تكفروها إذا حنثتم"⁽⁸⁾، ومثل هذا البيان يبين الله آياته، لعكم تشكرون الله على نعمته.

من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة قول الحق سبحانه: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾، تحول بالخطاب من الجماعة في قوله: (يُؤَاخِذُكُمْ- أَيْمَانِكُمْ- عَقَّدْتُمْ- تُطْعَمُونَ- أَهْلِيكُمْ- كِسْوَتُهُمْ) إلى خطاب الواحد في قوله ﴿ذَلِكَ﴾، ثم العودة مرة أخرى إلى خطاب الجماعة في قوله تعالى: (حَلَفْتُمْ- احْفَظُوا- أَيْمَانَكُمْ)، ثم تحول إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، ثم العودة إلى نسق خطاب الجماعة مرة ثالثة في قوله: ﴿لَكُمْ﴾، ففي الآية الكريمة التفاتان من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾. و ﴿كَذَلِكَ﴾، ولم يقل الحق سبحانه (ذلكم) و (كذلكم) لتحصل المطابقة، ويستمر النسق في خطاب الجماعة. والسر في تحول الخطاب من الجماعة إلى الواحد في (ذلك) و(ذلكم) هو

(1) سورة: المائدة: آية ٨٩

(2) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 205، 206

(3) التفسير الوسيط، 1/ 1146

(4) الكشاف، الزمخشري، 3/ 307

(5) تفسير الثعالبي، 2/ 414

(6) الكشاف، الزمخشري، 5/ 307

(7) التفسير الوسيط، 1/ 1149

(8) تفسير البيضاوي، 1/ 475

أن الخطاب فيهما موجه للنبي ﷺ، وكل فرد يقع في يمين اللغو؛ لأن صحابة رسول الله صلى الله عليه قد سألوه عن الأيمان التي أقسموها، فكان الرد من الله سبحانه بنزول الآية الكريمة.

4) بيان أحكام الاستئذان

الموضع الأول: يبين الحق سبحانه لعبادة أحكام الاستئذان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنَ اللَّيْلِ وَمِنَ الْمَسَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽¹⁾.

قال ابن عباس في سبب نزول الآية الكريمة: "وجّه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار، يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهر؛ ليدعوه، فدخل، فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك، فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية"⁽²⁾. وقال مقاتل: "نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأنت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدامنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية"⁽³⁾.

وتترجم المعنى العام للآية في "الأمر بأن يستأذن العبيد، والإماء، والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ثلاث مرات في اليوم واللييلة قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، وبالظهيرة؛ لأنه وقت وضع الثياب للقائلة، وبعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم، وسمي كل واحدة من هذه الأحوال عورة؛ لأن الناس يختل تسترهم، وتحفظهم فيها"⁽⁴⁾، وماعدا ذلك من الأوقات "فليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات حرج في أن يدخل عليكم عبيدكم، وإماءكم، وأطفالكم الذين لم يبلغوا الحلم في غير هذه الأوقات؛ لأنكم تكونون حينئذ متسترين محتاطين، مستعدين الدخول عليكم؛ لكي يقضوا حاجاتهم"⁽⁵⁾، "وبمثل هذا البيان الذي طرقت أسماكم يبين الله لكم الآيات بيانا كاملا، وهو عليم حكيم، فبيانه بالغ غاية الكمال لا محالة"⁽⁶⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة أن الخطاب انتقل من الجمع في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى خطاب الواحد في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾، ولم يقل الحق سبحانه "كذلكم" بإضافة ميم الجمع، ثم العودة مرة أخرى إلى خطاب الجماعة في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، و﴿كَذَلِكَ﴾، "إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد؛ لما مر مرارا من تفخيم شأن المشار إليه والإيذان ببعد منزلته، وكونه من الوضوح بمنزلة المشار عليه حساً"⁽⁷⁾، وخطاب الواحد معني به الرسول الكريم ﷺ - فهو المشرع عن ربه فكأن هذا البيان الرباني نزل على رسولنا الكريم ردا على سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(1) سورة النور آية 58

(2) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 329

(3) المصدر نفسه، ص 329

(4) الكشاف، الزمخشري، 6 / 735

(5) التفسير الوسيط، 1 / 1464

(6) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 2 / 295

(7) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 6 / 194

لرسول الله، حين قال: يا رسول الله، "وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا حال الاستئذان"، فكان الجواب من الله لنبيه ببيان آداب الاستئذان للنبي، ومن ثم للمسلمين كافة.

والسر في العدول عن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد، هو كما يرى نصر سعيد: "للإشارة إلى توحيد المقصد، ووضوح المنهج، فما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر، ومن دقق النظر في الحكمة من هذه الآداب السامية عرف أن الشرع الحكيم قد حافظ على حرمتك عندما نهك عن التعرض لحرمت غيرك، فكأن المجتمع المسلم صار فردًا واحدًا"⁽¹⁾.

الموضع الثاني: يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽²⁾.

نزلت هذه الآية مع الآية السابقة لها، وبها تنتمه أحكام الاستئذان، والمعنى العام لها أنه "لما بين الله في الآية السابقة حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، وهو أنهم لا يلزمون بالاستئذان إلا في الأوقات الثلاثة المبينة فيها، عقبها الله بهذه الآية لبيان حكم الأطفال الذين بلغوا، سواء أكانوا أقارب أم أجنب"⁽³⁾، وهذا التعقيب؛ "لبيان حال الأطفال بعد البلوغ دفعا لما عسى أن يتوهم أنهم وإن كانوا أجنب ليسوا كسائر الأجنب؛ بسبب اعتيادهم الدخول، إي: إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجنب فليستأذنوا إذا أرادوا الدخول عليهم"⁽⁴⁾ كما استأذن الكبار من ولد الرجل، وأقربائه الأحرار.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة انتقال الخطاب من الجماعة في قوله: ﴿منكم﴾ إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿كذلك﴾، ولم يقل الحق سبحانه: (كذلكم) بإضافة ميم الجمع، ثم العودة إلى خطاب الجماعة (لكم)، والمخاطب الواحد هنا المقصود به النبي محمد، فهذا التبين هو من التشريع المعني به النبي، فهو المشرع لأمته عن ربه، وقد يكون المقصود به كل فرد من المسلمين فهو مأمور بالاستئذان، وهذا رأي نصر سعيد، حيث قال: "فالخطاب لكل مخاطب بهذه الآيات، ليعلم كل منهم أن الناقد بصير؛ فليحذر المخالفة"⁽⁵⁾.

ت - بلاغة الالتفات في سياق بيان بعض آيات الله

الموضع الأول: يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ﴾⁽⁶⁾.

وفي المعنى العام للآية أن الله تعالى يذكر أن "من حججه وأدلته على ذلك أيضا خلقه لأبيكم آدم من نفسه زوجة ليسكن إليها؛ وذلك أنه خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم"⁽⁷⁾، وقال آخرون: (من أنفسكم)، أي "من جنسكم لا من جنس آخر، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿لتسكنوا إليها﴾، أي لتألفوها، وتطمئنوا بها، فإن

(1) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، نصر سعيد، ص1495

(2) سورة النور: آية ٥٩

(3) التفسير الوسيط، 1/ 1465

(4) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 6/ 195

(5) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، نصر سعيد، ص1496

(6) سورة الروم آية 21

(7) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 20/ 86

المجانسة من دواعي التضام والتعارف، كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر⁽¹⁾، وجعل بينكم التواد والتراحم بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولا لقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة، وأورحم⁽²⁾، ويختتم الحق سبحانه الآية الكريمة بالإشارة إلى "إن فعله هذا ذلك لعبرا وعظات لقوم يتذكرون في حجج الله وأدلته، فيعلمون أنه الإله الذي لا يُعجزه شيء أرادته، ولا يتعذر عليه فعل شيء شاءه"⁽³⁾.

إن من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في الآية الكريمة انتقال السياق من خطاب الجماعة في قوله: (لكم - أنفسكم - لتسكنوا - بينكم) إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿ذلك﴾، ولم يقل الحق سبحانه: (ذلكم) بإضافة ميم الجمع؛ ليستقيم السياق، ويستمر في خطاب الجماعة. و﴿ذلك﴾ إشارة فيما ذكر أنه خلقهم من تراب، وخلق أزواجهم من أنفسهم، وإلقاء المودة والرحمة بينهم، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعده منزلته⁽⁴⁾، والخطاب لكل فرد من بني البشر مسلمهم وكافرهم، فنعمة الزواج مسبوقة على جميع بني البشر.

وسر العدول عن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد هو أن الزواج والشعور فيه بالسكينة، وما فيه من مودة ورحمة فعل فردي، يشعر به الفرد المتزوج مفردا، وليس فعلاً جماعياً، فهو منوط بكل فرد على حدة، ولكن التفكير هو فعل جماعي؛ لذلك قال الحق في آخر الآية: ﴿لقوم يتفكرون﴾.

الموضع الثاني: يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽⁵⁾.

يتمثل المعنى العام للآية في أن الله تعالى يذكر أن "من حججه وأدلته أيضا على أنه لا يُعجزه شيء... خلقه السموات والأرض من غير شيء أحدث ذلك منه، بل بقدرته التي لا يمتنع معها عليه شيء أرادته"⁽⁶⁾، ومن أدلته أيضا على قدرته سبحانه اختلاف لغتكم، بأن علم لكل صنف لغته، وألهمه وضعها، وأقدره عليها، أو أجناس نطقكم وأشكاله، فإنك لا تكاد تسمع منطقيين متساويين في الكيفية على كل وجه، واختلاف ألوانكم، وهو بياض الجلد، وسواده، وتوسطه فيما بينهما⁽⁷⁾، واختتمت الآية الكريمة ببراعة النظم الإلهي بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ لتناسب ما سبقها من التعدد، واختلاف الأجناس، والألوان، فهي آيات لجميع الناس، "وجعل ذلك آيات للعالمين؛ لأنه مقرر معلوم لديهم، يمكنهم الشعور بآياته بمجرد التفات الذهن دون إمعان النظر"⁽⁸⁾.

إن من بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد في الآية الكريمة انتقال الخطاب في السياق من خطاب الجماعة في قوله: ﴿أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿ذلك﴾ دون إضافة

(1) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 56/7

(2) الكشاف، الزمخشري، 827/6

(3) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 87/20

(4) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 56/7

(5) سورة الروم آية 22

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 87/20

(7) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 56/7

(8) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 75/21

ميمم الجمع (ذلكم). ذلك إشارة إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض، واختلاف الألسنة، والألوان، والمخاطب هنا كل فرد من العالمين أنس وجن.

وسر العدول عن مخاطبة الجماعة إلى خطاب الواحد هو قصد نظر كل واحد في نفسه؛ ليجد آية الله في الاختلاف في اللون، واللغة متحققة في ذاته، فيدرك عظمة الله في خلق السموات والأرض، وأنه سبحانه "أنه لا يعييه إعادتهم لهيئتهم التي كانوا بها قبل مما تم من بعد فناءهم"⁽¹⁾.

الموضع الثالث: يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾⁽²⁾.

يتمثل المعنى العام للآية في أن الله تعالى يذكر أن "من حججه عليكم أيها القوم، تقديره الساعات والأوقات، ومخالفته بين الليل والنهار، فجعل الليل لكم سكنا تسكنون فيه، وتنامون فيه، وجعل النهار مضيئا لتصرفكم في معاشكم، والتماسكم فيه من رزق ربكم"⁽³⁾، واختتمت الآية ببراعة النظم الإلهي بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، فالمنام في الليل، وفي النهار السعي للرزق؛ ذلك آية لقوم يسمعون، أي "شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار، حيث يتأملون في تضاعيف هذا البيان، ويستدلون بذلك على شؤونه تعالى"⁽⁴⁾. وقد جعلت دلالات المنام والابتغاء من فضل الله لقوم يسمعون لوجهين: "أحدهما: أن هذين حالتان متعاورتان على الناس، قد اعتادوهما، فقل من يتدبر في دلالتهما على دقيق صنع الله تعالى؛ فمعظم الناس في حاجة إلى من يوقفهم على هذه الدلالة ويرشدهم إليها. والأخرى: أن في ما يسمعه الناس من أحوال النوم ما هو أشد دلالة على عظيم صنع الله تعالى"⁽⁵⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة انتقال السياق من خطاب الجماعة في قوله تعالى: ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ﴾ إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ دون إضافة ميم الجمع (ذلكم)، والخطاب موجه لكل فرد، فالنوم حاصل لجميع البشر، وهو فعل فردي، يفعله الواحد بنفسه. وسر العدول عن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد هو للتأكيد على تدبر الفرد لآية الله النوم، والسعي لطلب الرزق، وهما آيتان تحدثان يوميا باستمرار حياة الإنسان.

الموضع الرابع: قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبرئ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحيي المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾⁽⁶⁾.

إن المعنى العام للآية "أي، ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل، يخبرهم: أي قد جئتكم برهان من ربكم على نبوتي، هو أني أنشئ لكم من الطين تمثالا كهيئة الطير وشكله، فانفخ فيه فيكون بعد النفخ طيرا بأمر الله الذي جعل ذلك مجزة وبرهانا على أنه أرسلني إليكم. فإن مثل ذلك لا يقدر عليه بشر؛ لأنه مما اختص الله

(1) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 87/20

(2) سورة الروم آية 23

(3) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 87/20

(4) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 57/7

(5) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 76، 77/21

(6) سورة آل عمران: آية 49

به، فإذا أمكن الله بعض عبادته من ذلك، فذلك يعتبر تأييدا من الله له في دعوى الرسالة⁽¹⁾، ومن دلائل نبوة عيسى عليه السلام قوله: ﴿أني أشفي الأكمه﴾ الذي يولد وهو أعشى، مغموم العينين⁽²⁾، وأشفي من بجلده برص. وهو بياض يخالف لو سائر الجلد. وهاتان العلتان أعجزتا الأطباء. ولهذا أراهم الله المعجزة على يد عيسى من جنس الطب⁽³⁾. وروي أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفا من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطلق أتاه عيسى، وما كانت مداوته إلا بالدعاء وحده، وكرر: ﴿ياذن الله﴾؛ دفعًا لوهم من توهم فيه الألوهية⁽⁴⁾. ويخبرهم عن أحوالهم التي لا يطلع عليها أحد، فيخبرهم بما أكلوه في بيوتهم، وما عندهم مدخر فيها، لتكون هذه المتعاطفات كلها من قبيل المعجزات بقربه قوله: ﴿أبئناكم﴾؛ لأن الأنبياء يكون في الأمور الخفية⁽⁵⁾. وتختتم الآية الكريمة بقول عيسى عليه السلام لقومه "إنه يخلق من الطين الطير بإذن الله، وفي إبرائي الأكمه والأبرص، وإحيائي الموتى، وإنبائي إياكم بما تأكلون، وما تدخرون في بيوتكم، ابتداء من غير حساب، وتنجيم، ولا كهانة، ولا عرافة؛ لعبرة لكم ومتفكرًا، تتفكرون في ذلك، فتعتبرون به أني محق في قولي لكم: أني رسول الله إليكم"⁽⁶⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة انتقال الخطاب من الجماعة في قوله تعالى: ﴿جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ﴿لَايَةٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى خطاب الواحد فقال: ﴿ذَلِكَ﴾، ولم يقل: (ذلكم) بإضافة ميم الجمع ثم العودة إلى خطاب الجماعة في قوله تعالى: ﴿لَايَةٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، وهنا التفات أيضا من التكلم (أني) إلى الخطاب (جئناكم)، لكنه خارج حدود البحث. وخطاب الجمع في الآية الكريمة على لسان عيسى عليه السلام "موجه منه إلى بني إسرائيل، فإنهم بادروا بدعوته بالكذب والشتيم"⁽⁷⁾، وإفراد الخطاب في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ مقصود؛ لأن يعتبر كل فرد بنفسه بتلك المعجزات التي منحها الله لرسوله عيسى عليه السلام، فالمعجزات لجميع من كذب عيسى في نبوته حال بعثته. وبيان هذا المعجزات في القرآن الكريمة إلى كل النصراري في عصر الرسول محمد ﷺ - والعصور التالية إلى قيام الساعة بقول الله على لسان عيسى عليه السلام بأن معجزاته هذه "بأذن الله"، فتنفي عن عيسى الألوهية التي أثبتها النصراري له، فإن هذه المعجزات قد استدلوها بها نصراري نجران عند النبي ﷺ. وعلى هذا يجوز اعتبار قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ حثًا لنصراري نجران وغيرهم للإيمان بالرسول محمد، وترك القول بألوهية عيسى، فهو رسول الله كما ذكر الله في قوله: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾.

- (1) التفسير الوسيط، 571/1
- (2) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 6 / 428
- (3) التفسير الوسيط، 571/1
- (4) الكشاف، الزمخشري، 1 / 173
- (5) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 3 / 252
- (6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 6 / 436
- (7) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 3 / 252

ث- بلاغة الالتفات في سياق الحز على الاعتصام ونبد الفرقة.

يقول تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾⁽¹⁾.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في سبب نزول الآية الكريمة: "كان بين الأوس والخزرج شر في الجاهلية، فذكروا ما بينهم، فثار بعضهم على بعض بالسيوف، فأتى النبي -ﷺ- فذكر ذلك له، فذهب إليهم فنزلت هذه الآية"⁽²⁾. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، فلما سمع القوم القرآن من النبي -ﷺ- تحاجزوا، ثم عانق بعضهم بعضاً، يقول جابر بن عبد الله، وهو في القوم: "لقد اطلع إلينا رسول الله، وما أحد أكره طلعة إلينا منه، لما كنا هممنا به، فلما انتهى إليهم النبي -ﷺ- قال: ﴿اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾"⁽³⁾.

وفي المعنى العام للآية الكريمة، قيل: "بعد أن نرى الله المؤمنين عن طاعة أهل الكتاب، ونهيمهم إلى عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة، وذكرهم بما يجب عليهم من تقوى الله حق تقاته، وتمسكهم بالإسلام حتى يأتهم الموت، وهم مسلمون - بعد هذا كله - عاد فأمرهم بالاعتصام بحبله"⁽⁴⁾، وأن "التمسك بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهدته إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله... ولا تفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهدته إليكم"... واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم، حين كنتم أعداء في شرككم، يقتل بعضكم بعضاً عصبية في غير طاعة الله، ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخواناً بعد إذ كنتم أعداء، تتواصلون بألفة الإسلام، واجتماع كلمتكم عليه"⁽⁵⁾. ثم "كنتم بسبب كفركم، وما جرركم إليه من عداواتكم، مشرفين على الوقوع في نار جهنم إذ لو أدرككم الموت على هذه الحال، لوقعتم فيها. ولكن الله أنقذكم منها بأن هداكم للإيمان، وزينه في قلوبكم، فكان رباطاً موحداً لكم"⁽⁶⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة انتقال الخطاب من الجماعة (واعتصموا، واذكروا، كنتم، قلوبكم، فأنقذكم) إلى خطاب الواحد فقال: ﴿كذلك﴾، ولم يقل: (كذلكم) بإضافة ميم الجمع، ثم عاد إلى خطاب الجماعة مرة أخرى، فقال: ﴿يبين الله لكم﴾، والخطاب في كذلك هو خطاب للمؤمنين من الأوس والخزرج بشكل خاص، ولسائر المسلمين بوجه عام.

وسر العدول عن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد لأمرين: الأول: تسليط الضوء على بعد المشار إليه، وأثره في المخاطب، وهو في الآية البيان السابق الذي بينه الحق بوجوب لزوم الاعتصام، والتمسك بحبل الله،

(1) سورة آل عمران: آية 103

(2) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 118

(3) تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق: عبدالله محمود شحاته، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002 م، 1/ 293.

(4) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 630/1.

(5) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 70/7، 74، 77

(6) التفسير الوسيط، 631/1

وترك الفرقة والعداوة. والثاني: "إن أفراد الخطاب مناسب لتأليف القلوب، واجتماعها على طريق الهداية الواحد"⁽¹⁾. والله أعلم.

ج- بلاغة الالتفات في سياق الصبر على إيذاء المشركين

يقول تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾⁽²⁾.

وعن سبب نزول الآية الكريمة روي أن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه، وكان من أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، قال: "أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا، وكان يهجو النبي -ﷺ-، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان النبي -ﷺ- قدم المدينة، وأهلها أخلاط، منهم المسلمون، ومنهم المشركون، ومنهم اليهود، فأراد النبي -ﷺ- أن يستصلحهم كلهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه، ويؤذون أصحابه أشد الأذى، فأمر الله نبيه بالصبر على ذلك، وفيهم أنزل الله الآية الكريمة. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾⁽³⁾. وقال عكرمة: "نزلت في أبي بكر وفنحاص اليهودي"⁽⁴⁾، وهو الذي قال: إن الله فقير، ونحن أغنياء؛ فضربه أبو بكر على وجهه.

وفي المعنى العام للآية الكريمة قيل: "أنها شروع في تسليية الرسول، ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكاره؛ إثر تسليتهم عما قد وقع منهم؛ ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويستعدوا للقاءه، ويقابلوه بحسن الصبر والثبات"⁽⁵⁾، والمعنى "لتختبرن بالمصائب في أموالكم وأنفسكم بموت الأقارب والعشائر من أهل نصرتكم وملتكم، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من اليهود، مثل قول: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي: من النصارى مثل قولهم: "المسيح ابن الله"، وإن تصبروا لأمر الله الذي أمركم به فيه، وفي غيرهم من طاعة، "وتتقوا" الله فيما أمركم، ونهاكم، فعملوا في ذلك بطاعته، فإن ذلك الصبر والتقوى مما عزم الله عليه، وأمركم به"⁽⁶⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في قول الحق سبحانه: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ تحول الخطاب من خطاب الجماعة (تصبروا - تتقوا) إلى خطاب الواحد (ذلك)، ولم يقل الحق (ذلكم) بإضافة ميم الجمع لتحصل المطابقة. والمقصود بخطاب الواحد هو النبي -ﷺ- حيث أمر من الله له بالصبر على إيذاء المشركين له، خاصة إذا علمنا سبب نزول الآية، وتجراً كعب بن الأشرف اليهودي بهجاء النبي. وقد يكون المقصود بالخطاب أبا بكر الصديق، بعد أن قام بضرب فنحاص اليهودي بعد أن تلفظ فنحاص على الله بقوله: "إن الله فقير"، فيكون الخطاب لأبي بكر بالصبر على إيذاء أهل الكتاب، وتقوى الله. ويدعم أن المقصود هو الرسول محمد -ﷺ- - قوله تعالى في آخر الآية: ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وهذا تذكير للنبي بأن يكون

(1) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، نصر سعيد، ص1491

(2) سورة آل عمران، آية: ١٨٦

(3) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 135

(4) تفسير مقاتل بن سليمان، 337/1

(5) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 2/ 123

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 454/7 - 455

ذا عزم مثل إخوانه الأنبياء أولي العزم السابقين، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل﴾⁽¹⁾، والله أعلم.

وسر العدول عن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد هو التأكيد على أمر الصبر والتقوى لكل مؤمن، يتعرض للأذى من المشركين في كل زمان ومكان، كما صبر رسولنا الكريم وأصحابه. "فهذان الأمران: الصبر والتقوى كفيلا بوحدهم، وجعلهم صفا واحدا تجاه أعدائهم"⁽²⁾.

ح - بلاغة الالتفات في سياق طاعة الله ورسوله.

قال الله عز وجل مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾⁽³⁾.

وفي سبب نزول الآية الكريمة أن البخاري روى في صحيحه "عن ابن عباس قال: نزلت في عبدالله بن خذافة بن قيس الأنصاري البدري، وكان به دعاية؛ إذ بعثه رسول الله -ﷺ- على سرية، فأمرهم يوماً أن يجمعوا حطباً، ويوقدوا ناراً ففعلوا، ثم أمرهم أن يدخلوها محتجاً عليهم بقوله -ﷺ-: (مَنْ أطاع أميراً فقد أطاعني، ومَنْ عصى أميراً فقد عصاني)، فلم يستجيبوا له، وقالوا له: إنما آمنا، وأسلمنا؛ لننجو من النار، فكيف نُعذَّب أنفسنا بها؟! وذكر ذلك لرسول الله -ﷺ-، فقال: "لو دخلوها ما خرجوا منها؛ إنما الطاعة في المعروف"⁽⁴⁾.

ويقال في المعنى العام للآية: "إنه لما أمر الله الولاة بالعدل في الحكم بين الناس، أمر سائر المؤمنين بطاعة هؤلاء الولاة العدول، في ضمن طاعة الله ورسوله"⁽⁵⁾، فيخاطب الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين "أطيعوا الله ريبكم فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمدا -ﷺ-؛ فإن في طاعتكم إياه طاعة لربكم؛ وذلك لأنكم طيعونه لأمر الله إياكم بطاعته"⁽⁶⁾، ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾، أي: وإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين، ﴿أولو الأمر﴾ اختلف المفسرون فيها على قولين: "الأول: أنهم أصحاب السرايا، والثاني: هم العلماء، وبه قال أكثر التابعين، واختاره مالك والطبري"⁽⁷⁾. "ثم يأمر الحق سبحانه عباده المتنازعين في أمر ما بوجوب الرجوع فيه إلى الكتاب والسنة"⁽⁸⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾، فيه تحريض وتحذير معاً؛ لأن الإيمان بالله، واليوم الآخر وازعان يزعان عن مخالفة الشرع، والتعريض بمصالح الأمة للتلاشي"⁽⁹⁾، "ذلك" إشارة إلى الرد للكتاب والسنة"⁽¹⁰⁾، "أحسن عاقبة، أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بدون رد"⁽¹¹⁾.

(1) سورة الأحقاف آية 35

(2) الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، نصر سعيد، 9/ 1492

(3) سورة النساء: آية 59

(4) لباب النقول في أسباب النزول. جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 2002 م، ص80 -

81، أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص159 .

(5) التفسير الوسيط، 1/ 837

(6) جامع البيان عن تفسير آي القرآن، الطبري، 8/ 495

(7) تفسير الثعالبي، 2/ 255

(8) الكشاف، الزمخشري، 5/ 242

(9) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 5/ 101

(10) الكشاف، الزمخشري، 5/ 242

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الجماعة في قوله: (وأطيعوا، منكم، تنازعتم، فردوه) إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، ولم يقل الحق سبحانه (ذلكم خير) بإضافة ميم الجمع. والسر في تحول الخطاب من الجماعة إلى الواحد إن المخاطب في (ذلك) كل فرد يقع في التنازع، وجاءت مفردة بخطاب الواحد؛ لمناسبة القلة حيث التنازع أمر مذموم غير محمود، فالواحد فيه أكثر من الجماعة، يزيد من ذلك قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ بالإفراد، فلا خير في التنازع إلا بالرجوع إلى الله ورسوله، وإلى أولى الأمر، والله أعلم.

المبحث الثالث: من بلاغة الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة في الذكر الحكيم

يزخر القرآن الكريم بأنواع متعددة من الخطاب، ذكرها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، ومنه خطاب الجمع بعد الواحد، ويعد نقل الكلام من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة نوعاً من أنواع الالتفات، وقد عرف عند البلاغيين قديماً، وإن لم يجعلوه صراحة من أنواع الالتفات، فقد قال السيوطي: "يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد أو الأثنين أو الجمع لخطاب الآخر"⁽²⁾، والمتأمل في آيات الالتفات من الواحد إلى الجماعة يجد أن المخاطب الواحد المبتدأ به الخطاب هو النبي محمد ﷺ في أغلب الشواهد؛ وذلك تعظيماً له ﷺ؛ ولأنه رأس الأمة، وقائدها، وقودتها، فتكليفه ﷺ بالأمر أولاً، ثم تكليف أمته من بعده به؛ ليسهل على أتباعه تلقي الأمر، والانصياع له، كما فعل نبيهم، وقودتهم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽³⁾.

وقد ورد الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة في مواضع وسياقات عدة من القرآن الكريم منها، ما يأتي: وسنوضح بلاغة ذلك فيما يأتي منها:

أ- بلاغة الالتفات في سياق آيات أحكام الطلاق

تمثلت بلاغة الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة في سياق آيات أحكام الطلاق، في مواضع عدة، وسنكتفي بذكر ما يأتي:

الموضع الأول: قال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾⁽⁴⁾. وعن أسباب نزول الآية الكريمة فقد "روى قتادة عن أنس قال: طلق رسول الله حفصة فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل له: راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من إحدى أزواجك ونسائك في الجنة"⁽⁵⁾، ويذكر السعدي "أنها نزلت في عبدالله بن عمر؛ وذلك أنه طلق امرأته حائضا، فأمره رسول الله ﷺ - أن يراجعها، ويمسكها حتى تطهر، ثم تحيض حيضة أخرى، فإذا طهرت طلقها إن شاء قبل أن يجامعها؛ فإنها العدة التي أمر الله بها"⁽⁶⁾.

(1) تفسير البيضاوي، 381/1
(2) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ، 5/1739
(3) سورة آل عمران: آية 31
(4) سورة الطلاق آية 1
(5) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص435
(6) المصدر نفسه، ص435

أما المعنى العام للآية فقد توجه الخطاب فيها للنبي ﷺ - وهو "أسلوب من أساليب التشريع المهتم به، فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يذكر بعده للنبي" (1) إذ يقول: "إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لظهرهن الذي يحصينه من عدتهن، طاهرًا من غير جماع، ولا تطلقوهن بحيضهن الذي لا يعتد به من قرئهن" (2)، ثم أمر من الله بضبط العدة ثلاثة قروء كاملة، وبتقوى الله "في تطويل العدة عليهن، والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بربوبيته لهن تأكيدا للأمر، ومبالغة في إيجاب الاتقاء" (3)، ف "لا تخرجوا من طلقتم من نساءكم لعدتهن من بيوتهن التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهن" (4)، إلا أن يرتكبن فاحشة واضحة، وتشمل الفاحشة المبينة كما قيل: "النشوز، والبذاء على الأزواج والأحماء، كما تشمل الزنا والسرقا وغيرهما" (5).

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الواحد (النبي) إلى خطاب الجماعة (طلقتم) بإضافة ميم الجمع، والأصل (طلقت)، والسر في ذلك، هو أن الخطاب بدأ للنبي ﷺ - في قوله: ﴿يا أيها النبي﴾، ثم تحول لسائر المسلمين؛ "لأنه المبلغ للناس، وإمام أمته، وقودتهم، والمنفذ لأحكام الله فيهم فيما بينهم من المعاملات" (6)؛ "ولتشریفه ﷺ، وإظهار جلاله منصبه، وتحقيق أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم، وتغليبه عليهم؛ لا لأن نداءه كندائهم، فإن ذلك الاعتبار لو كان في حيز الرعاية لكان الخطاب هو الأحق به لشمول حكمه لكل قطعاً" (7).

الموضع الثاني: يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (8).

نزلت الآية الكريمة في معقل بن معقل بن يشار، "قال: كنت زوجت أختا لي من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك، وأفرشتك، وأكرمتك، فطلقها، ثم جئت تخطبها؟ لا، والله لا تعود إليها أبدا، قال: وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، فقلت: الآن أفعَل يا رسول الله، فزوجتها إياه" (9).

وقيل في المعنى العام للآية: "والمعنى: وإذا طلقتم النساء أيها الأزواج، فبلغت المطلقات نهاية عدتهن فلا تمنعهن أيها الأولياء أن يتزوجن أزواجهن الذين طلقوهن وصلا لما انقطع بينهم وبينهن إذا وقع الطلاق بينهم بما عرف حسنه شرعا ومروءة، فإن للزوجة حقا ثابتا في اختيار زوجها؛ لأنها هي التي سوف تعيش معه" (10). (ذلك) ما ذكر في هذه الآية: من نهي أولياء المرأة عن عضلها عن النكاح، يقول: "فهذا الذي نهيتكم عنه من

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 28 / 294

(2) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 23 / 423

(3) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 8 / 260

(4) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 23 / 436

(5) التفسير الوسيط، 1 / 1459

(6) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 28 / 294

(7) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 8 / 260

(8) سورة البقرة: آية 232

(9) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 80-81

(10) التفسير الوسيط، 1 / 389

عضلهن عن النكاح، عظة مني (من كان منكم أيها الناس يؤمن بالله واليوم الآخر)، يعني يصدق بالله، فيوحده، ويقر بربوبيته، ومن يؤمن باليوم الآخر، فيصدق بالبعث للجزاء والثواب والعقاب، ليتقي الله في نفسه، فلا يظلمها بضرار وليته، ومنعها من نكاح من رضيته لنفسها، ممن أذنت لها في نكاحه⁽¹⁾، "ذلكم أزكى لكم وأطهر من أدناس الأثام، وقيل: أزكى وأطهر: أفضل وأطيب، والله يعلم ما في ذلك من الزكاء والطهر، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلون⁽²⁾".

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الجماعة (طلقتم، تعضلوهن) إلى خطاب الواحد (ذلك)، ثم العودة إلى خطاب الجماعة (ذلكم) بإضافة ميم الجمع. وإفراد الخطاب في (ذلك) فسرها أبو السعود والبيضاوي بقولهما: "والخطاب للجميع على تأويل القبيل أو كل واحد أو أن الكاف لمجرد الخطاب، والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين أو للرسول على طريقة (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء)؛ للدلالة على حقيقة المشار لا يمكن أن يتصوره كل أحد"⁽³⁾، والجماعة المخاطبين (ذلكم) في الآية الكريمة هم المسلمون المكلفون بهذه الأحكام.

ب- بلاغة الالتفات في سياق آيات قتال المشركين

إن توضيح بلاغة الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة الذي جاء في سياق آيات قتال المشركين، هو بذكرنا للموضع الآتي: يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ الْكَافِرِينَ﴾⁽⁴⁾. من أسباب نزول الآية الكريمة أنه روي "عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: أقبل أبي بن خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ - يريد، فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ - فخلوا سبيله، فاستقبله مصعب بن عمير أجد بني عبد الدار، ورأى رسول الله ترقوة أبي من فرجة بين سابعة البيضة والدرع، فطعنه بحرته، فسقط أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، وكسر ضلعاً من أضلعه، فأناه أصحابه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أعجزك؟ إنما هو خدش! فقال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات أبي إلى النار - فسحقاً لأصحاب السعير - قبل أن يقدم مكة فأنزل الله تعالى ذلك⁽⁵⁾. ويرى أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت في رمي النبي ﷺ - من حصباء الوادي يوم بدر، حين قال للمشركين: شامت الوجوه، ورامهم بتلك القبضة، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء"⁽⁶⁾.

والمعنى العام للآية الكريمة أنه "لما كسر المسلمون أهل مكة، وقتلوا، وأسروا، واقتلوا على التفاخر، فكان القائل يقول: قتلت، وأسرت"⁽⁷⁾، قال الله لهم: "فلم تقتلوا المشركين، أيها المؤمنون، أنتم، ولكن الله قتلهم"⁽⁸⁾، ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله الكريم فيقول: "وما رميت يا محمد رمياً توصله إلى أعينهم، ولم

(1) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 27/5

(2) الكشاف، الزمخشري، 1/135

(3) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 1/229، تفسير البيضاوي، 1/216

(4) سورة الأنفال: آية 17-18

(5) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 238

(6) المصدر نفسه، ص 239

(7) الكشاف، الزمخشري، 1/407

(8) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 13/441

تقدر عليه إذ أتيت بصورة الرمي، ولكن الله أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا، وتمكنتم من قطع دابرتهم"⁽¹⁾، "وليُعطي الله من عنده المؤمنين عطاءً جميلاً غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره"⁽²⁾، وهذا الفعل من قتل المشركين، ورميهم حتى انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم، وإمكانهم من قتلهم وأسرتهم، واعلموا أن الله مع ذلك مُضْعِفٌ "كيد الكافرين"، يعني: مكرهم، حتى يَدُلُّوا، وينقادوا للحق، أو يَهْلِكُوا"⁽³⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الواحد (وما رميت) إلى خطاب الجماعة (ذلكم) بإضافة ميم الجمع، والأصل أن يستمر خطاب الواحد (ذلك)، والمخاطب الواحد في الآية هو الرسول محمد ﷺ - باتفاق المفسرين، فهو من أمسك بيده الشريفة الحصى، وألقاها على كفار مكة يوم بدر. والجماعة المخاطبين هم المسلمون، أصحاب رسول ممن شهد بدر مع رسول الله ﷺ.

وسر الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة هو تأكيد لجميع المسلمين خاصة ممن بدأوا يتفاخرون بأنفسهم بأنهم قتلوا، وأسروا من المشركين بأن ما فعلوه لا يستوجب الفخر، فالفاعل الحقيقي هو الله سبحانه، فقد نفى الله عز وجل الرمي عن النبي محمد ﷺ - وأثبتته لنفسه في خطابه للنبي (الواحد)، ثم خاطب الجميع؛ ليدركوا حقيقة الأمر بأن وحده هو موهن ومضعف كيد الكافرين، وذلك الأمر يستوجب الشكر لله لا التفاخر بأنفسهم.

ت- بلاغة الالتفات في سياق آيات علمه سبحانه بخلقه

لتوضيح بلاغة الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة الذي جاء في سياق آيات علمه سبحانه بخلقه، سنذكر الموضوعين الآتين:

الموضع الأول: يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽⁴⁾.

قيل في المعنى العام للآية: "إنها جاءت إثر بيان دعوة المشركين إلى الإيمان بالقرآن والفرح بما جاء فيه من آيات الحق، ليبين أن الله يعلم حال الرسول مع قومه في تبليغهم أمر ربه، وحال قومه معه في شأن ما دعاهم إليه، وأنه سيجازي كلا حسب حاله"⁽⁵⁾. يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما تكون يا محمد في شأن يعني في عمل من، وما تقرأ من كتاب الله من قرآن، ولا تعملون من عمل أيها الناس، من خير أو شر، إلا ونحن شهود لأعمالكم وشؤونكم، إذ تعملونها وتأخذون فيها"⁽⁶⁾، "إذ تخوضون فيه، وتندفعون، ولا يبعد عنه، ولا يغيب عن علمه من موزان نملة صغيرة أو هباء في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما،

(1) تفسير البيضاوي، 1/ 620

(2) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 4/ 13

(3) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 13/ 449

(4) سورة يونس: آية 61

(5) التفسير الوسيط، 4/ 109

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 15/ 114

ولا متعلقا بهما ... والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها⁽¹⁾، "ولا يصدر تعالى عنه شيء إلا وهو في كتاب مبين، المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ"⁽²⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الواحد في قوله: (وما تكون، وما تتلو) إلى خطاب الجماعة في قوله: (وما تعملون، عليكم)، والأصل أن يستمر الخطاب في سياق الواحد (وما تعمل، عليك)، فالمخاطب الواحد في الآية هو رسول الله -ﷺ- "وابتدئ بشؤون النبي التي منها ما هو من خواصه كقيام الليل، وثنى بما هو من شؤونه بالنسبة إلى الناس، وهو تلاوة القرآن على الناس"⁽³⁾، والجماعة المخاطبين هم المسلمون عامة، وفيه "تعميم الخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ولذلك ذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير"⁽⁴⁾.

الموضع الثاني: قال الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مَنبِيئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁵⁾.

يتمثل المعنى العام للآية في أن الله تعالى يقول في ذكره لنبيه: "فسدّد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين، مستقيما لدينه وطاعته، صنعة الله التي خلق الناس عليها ونصبت"⁽⁶⁾، "فلا تبدلوا دين الله وخلقته التي خلق الناس عليها بالإصغاء إلى دعاة الباطل من شياطين الأنس والجن"⁽⁷⁾؛ "ذلك الدين المستوي الذي لا عوج، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فيصدون عنه صدودا"⁽⁸⁾، فخافوا من الله، و"امتثلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه، وأدوا الصلاة بشروطها، وفي أوقاتها، ولا تكونوا من المشركين، بل من الموحدین المخلصين له العبادة، لا تريدون بها سواه؛ لأنها لا تنفع إلا مع الإخلاص له وحده سبحانه"⁽⁹⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الواحد في قوله: ﴿وأقم وجهك﴾ إلى خطاب الجماعة في قوله: (منيبين إليه واتقوه، ولا تكونوا)، والأصل أن يستمر الخطاب في سياق الواحد (منيبا إليه، واتقه). والمخاطب الواحد المقصود به النبي محمد -ﷺ- "والإفراد في أقم لما أن الرسول -ﷺ- إمام الأمة، فأمره مستتب لأمرهم"⁽¹⁰⁾، وقد فسر الشيخ الشعراوي أقم على معنى أقيموا، فقال: "وأقم هنا بمعنى أقيموا؛ لأن خطاب الرسول خطاب لامتته بدليل أنه سيقول في الآية بعدها ﴿منيبين إليه﴾، ولو كان الأمر له وحده لقال: منيبا إليه"⁽¹¹⁾، والمخاطبون الجمع هم المسلمون جميعا، فهم مأمورون بما أمر به نبيهم وتابعين له في كل ما فرضه الله عليه، وإنما ابتدئ به ﷺ؛ لأنه رأس الأمة، وقائدها، وقودتها.

(1) تفسير البيضاوي، 716/1

(2) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 158/4

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 212/11

(4) تفسير البيضاوي، 715/1

(5) الروم : آية 30/31

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 97/20

(7) التفسير الوسيط، 47/8

(8) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 60/7

(9) التفسير الوسيط، 49/8

(10) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 60/7

(11) خواطر الشيخ الشعراوي، 503/18

وسر الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة هو أن الخطاب في الأساس للجماعة، وإنما ابتدئ برسول الله قوتهم فلا يتقاعس مسلم عن تنفيذ أمر الله، حين يرى أن الأمر الإلهي بدأ بنبيه ورسوله محمد ﷺ.

ث- بلاغة الالتفات في سياق آيات الوعيد للمشركين

لتوضيح بلاغة الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة الذي جاء في سياق آيات الوعيد للمشركين، سنذكر الموضوعين الآتيين:

الموضع الأول: يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ⁽¹⁾.

روي في سبب نزول هذه الآية عن عكرمة أنه قال: "لقي النبي ﷺ -أبا جهل، فقال أبو جهل: لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، قال: فقتله الله يوم بدر، وأذله وعيره بكلمته، ونزل فيه ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾"⁽²⁾.

أما المعنى العام للآية فقيل: "أي: وقولوا له ذلك استهزاء به، وتقريعا له على ما كان يزعمه، روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبلها أعز، ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت وربك أن تفعل بي شيئا"⁽³⁾، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: يقال له: إن هذا العذاب الذي تعذب به اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تشكون، فتختصمون فيه، ولا توقنون به فقد لقيتموه، فدوقوه"⁽⁴⁾.

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الواحد في قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ﴾ إلى خطاب الجماعة في قوله: ﴿كنتم به تمترون﴾، والأصل أن يستمر الخطاب في سياق الواحد.

وسر الالتفات من المخاطب الواحد في الآية، وهو أبو جهل إلى خطاب الجمع (تمترون): وذلك ليشمل كل من يشك في البعث واليوم الآخر، فسوف يلاقي، ويدوق من العذاب في الآخرة جزء ما كان يكذب به في الدنيا.

الموضع الثاني: يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ زُيِّنَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أِنَّ صَوَارِغَ ضَلَالِكُمْ لَمُبِينًا﴾ (5) وَيَعْلَمُونَ⁽⁵⁾.

يتمثل المعنى العام للآية في أن الله تعالى يقول في ذكره لنبيه محمد ﷺ - "كَلِّ يَا مُحَمَّدُ أَمْرَ هَؤُلَاءِ الْمَكذِبِينَ بِالْقُرْآنِ إِلَيَّ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِأَخْرٍ غَيْرِهِ يَتَوَعَدُ رَجُلًا دَعَايَ وَإِيَاهُ، وَخَلِييَ وَإِيَاهُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ مِنْ وَرَاءِ مَسَاءَتِهِ"⁽⁶⁾، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ - وتهديدا للمكذبين⁽⁷⁾، "سندنيهم من العذاب درجة درجة بالإهمال وإدامة الصحة، وازدياد النعمة، فيظنوا أن الأنعام عليهم تفضيلا لهم على المؤمنين"⁽⁸⁾.

(1) سورة الدخان : آية 49/50

(2) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص 377

(3) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 65/8

(4) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 22 / 50

(5) سورة القلم آية 44

(6) جامع البيان عن تفسير أي القرآن، الطبري، 23 / 561

(7) ينظر: الكشاف، الزمخشري، 3 / 1133

(8) تفسير البيضاوي، 1625/1

إن من بلاغة الالتفات في الآية الكريمة تحول الخطاب من خطاب الواحد في قوله: ﴿قَدْزَنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ إلى الجماعة في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، والأصل أن يستمر الخطاب في سياق الواحد. والمخاطب الواحد في قوله: ﴿قَدْزَنِي﴾ هو الرسول محمد ﷺ، وخص بالخطاب؛ لأنه هو الذي أنزل عليه القرآن، وهو المبلغ عن ربه. والمخاطب الواحد في قوله: ﴿مَنْ يَكْذِبُ﴾ غير محدد ليدخل فيه كل من كذب بكلام الله حاضراً لعصر النبي أو في العصور التالية إلى قيام الساعة، والجمع بالضمير في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ عائداً على من يكذب بهذا الحديث، والأصل أن يقول الحق: (سنستدرجه).

وسر التحول من الواحد إلى الجماعة هو أن التكذيب فعل فردي، يقوم به الشخص، والعذاب والاستدراج من الله جماعي لكل هؤلاء المكذبين، وفي هذا تكبير بعذاب الله للأقوام السابقة، حيث عذبا جماعة بالخسف والطوفان والغرق ... ، وفي هذا تنبيه وتحذير لهؤلاء المكذبين أن يصيهم مثل ما أصاب الأقوام السابقة.

الخاتمة

ختاماً، توصل الباحث إلى نتائج عديدة هي ثمرة هذه المحاولة في رصد "بلاغة الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه في الذكر الحكيم"، وكان من أبرزها:

- أن الالتفات في الذكر الحكيم من أجل علوم البلاغة، إذ يزخر القرآن الكريم بالعديد من مواضع الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد وعكسه، ولكل موضع سر ونكتة خاصة به.

- جاء الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة في القرآن الكريم في سياقات ومقامات مختلفة، منها ما يتعلق بأحوال بني إسرائيل، ومنها ما هو متعلق بآيات التشريع، وبيان آيات الله في الكون والخلق.

- ورد لفظ (ذلك) في القرآن 390 مرة، منها 346 مرة، استعمل لخطاب المفرد المذكور، وعدل به الخطاب في 44 مرة، حيث جاءت لخطاب الجمع. وقد جعل بعض اللغويون (ذلك) مرادفاً لـ (هذا)، وجعلوهما كلفظة واحدة.

- قد لا يقصد في بعض المواضع بلفظ (ذلك) الخطاب، وإنما تحمل معنى البعد، ومثل هذا في كلام العرب كثير.

- اعتبر بعض المفسرين أن لفظ (ذلك) في القرآن مقصود به النبي محمد ﷺ - فهو المخاطب الأول بالقرآن الكريم، وعليه أنزل.

- إن من أسرار تحول الخطاب من الجماعة إلى الواحد وعكسه في القرآن الكريم إثارة انتباه المتلقي حيث لا يطرد الأسلوب على نمط واحد، وإن كل فرد مخاطب بما ورد في الآية الكريمة سواء بأمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب ... إلخ.

- إن من أسرار الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد أحياناً مجيئه لمناسبة سياق الآية في مقام التوحيد، وأنكار الشرك والكفر. وفي أحيان أخرى يكون لتوجه الخطاب إلى شخص مقصود بعينه كما قصد الله بخطابه أبا جهل لوعيده بالعذاب.

- إنه يغلب على خطاب الواحد أن يكون المقصود به رسول الله ﷺ - وحين يتحول الخطاب إلى الجماعة يقصد بهم المسلمون، فهم مأمورون بما أمر به نبيهم والتابعون له في كل ما فرضه الله عليه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ.
- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تخريج وتدقيق: عصام عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط2، 1992م.
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ط. دار الفكر العربي 1998م.
- الأسلوبية في النقد العربي الحديث (دراسة في تحليل الخطاب)، فرحان بدري الحربي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، حققه: شاكرا هادي شكر، مطبعة النجف، ط1، 1968م.
- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: حنفي محمد، مكتبة الشباب، القاهرة 1969م.
- التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- تحليل الخطاب الميني روائي في الجزائر رواية (أوشام بربرية) لجميلة زبير أنموذجا- لامية بوداود، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر.
- التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم، نزيه محمد إعلوي، أيمن محمد الأحمد، نشر دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد 34، ملحق 2007.
- تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
- تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، حققه: محمد بن صبيح بن حسن حلاق، محمود أحمد الأطرش، دار الرشيد بيروت، ط1، 2000م.
- تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ط1، 1419هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مطبعة المصحف الشريف، ط3، 1992م.
- تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق: عبد الله محمود شحاته، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط1، 2002م.
- جامع البيان عن تفسير أي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، حققه: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.
- خواطر حول القرآن الكريم، محمد متولي الشعراوي، مراجعة: أحمد عمر هاشم، نشر دار أخبار اليوم، د.ط، د.ت.
- ديوان أبي الطيب المتنبي. أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي، تحقيق: عبد الوهاب عزام، د.ط، (لجنة التأليف والترجمة والنشر. د.ت).
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، 1422هـ.

الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423هـ.

القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، راجعه واعتق به: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، ط. دار الحديث، القاهرة، 2008م.

الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم بين مطابقة المخاطب ولزوم الأفراد دراسة دلالية، نصر سعيد عبد المقصود، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق العدد 9، د.ت.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، اعتنى به: خليل مأمون شيحا، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 2009 م.

لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 2002 م.

لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، دار صادر، لبنان، بيروت، د.ط، 1414هـ.

محاضرات في تحليل الخطاب، فوزية دندوقة، د. ط، الجزائر، د.ت.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة.

مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.